الشاعر والأمة

للأستاذ إيليا أبو ماضي

خير ما يكتبه ذو مرقم   قصة فيها لقوم تذكره

* * *

كان في ماضي الليالي أمة   خلع العز عليها حبره
يجد النازل في أكنافها   أوجهاً ضاحكة مستبشره
ويسير الطرف من أرباضها   في جنان حاليات نضره
لم يقس شعب إلى أمجادها   مجدها الباذخ إلا استصغره
همها في العلم تعلي شأنه   بينها، والجهل تمحو أثره
ما تغيب الشمس إلا أطلعت   للورى محمدة أو مأثره
فتمنى الصبح تغدو شمسه   وتمنى الليل تغدو قمره
ومشى الدهر إليها طائعاً   فمشت تائهة مفتخره

* * *

كان فيها ملك ذو فطنة   حازم يصفح عند المقدره
يمقت الأمر الذي تمقته   فإذا ما استنكرته استنكره
بلغت في عهده مرتبة   لم تنلها أمة أو جمهره
فإذا أعطت ضعيفاً موثقاً   أشفقت أعداؤه أن تخفره
وإذا حاربها طاغية   كانت الظافرة المنتصره
مات عنها فأقامت ملكاً   طائش الرأي كثير الثرثره
حوله عصبة سوء كلما   جاء إدًّا أقبلت معتذره
حسّنت في عينه آثامه   وإليه نفسه المتكبره
وتمادى القوم في غفلتهم   فتمادى في الملاهي المنكره
زحزح الأمة عن مركزها   وطوى رايتها المنتشره
ورأت فيها الليالي مقتلاً   فرمتها فأصابت مدبره
فهوت عن عرشها مصروعة   مثلما ترى بسهم قبّره

* * *

كان فيها شاعر مشتهر   ذو قواف بينها مشتهره
كلما هزت يداه وتراً   هز من كل فؤاد وتره
نمس الحظ وهل أتعس من   شاعر في أمة محتقره؟
يقرأ الناظر في مقلته   ثورة ظاهرة مستتره
ما يراه الناس إلا واقفاً   في مغاني قومه المندثره
حائراً كالريح في أطلالها   باكياً كالسحب المنهمره
وهي في أمواتها لاهية   وكذاك الأمة المندثره
ما رأت مهجته المنفطره   لا ولا أدمعه المنحدره
فشكاه الشعر مما سامه   وشكاه الليل مما سهره
ثم لما عبث الناس به   مزق الطرس وشق المحبره

* * *

مر يوماً فرأى أشياخها   جلسوا يبكون عند المقبره
قال: ما بالكم ما خطبكم   أي كنز في الثرى أو جوهره؟
ومن الثاوي الذي تبكونه   قيصر أم تبّع أم عنتره؟
قال شيخ منهم محدودب   ودموع اليأس تغشى بصره:
إن من نبكيه لو أبصره   قيصر أبصر فيه قيصره
كيف يا جاهل لا تعرفه   وحداة العيس تروى خبره
هو ملك كان فينا ومضى   فمضت أيامنا المزدهره
ولبثنا بعده في ظلم   داجيات فوقنا معتكره
والذي كان بنا «معرفة»   لصروف الدهر أمسى نكره
فانتهى التاج إلى معتسف   لم يزل بالتاج حتى نثره
كل ما تصبو إليه نفسه   مضمر أو خمرة معتصره
مستهين بالليالي وبنا   مستعين بالطغام الفجره
كلما جاء إليه خائن   واشياً قرّبه واستوزره
فإذا جاء إليه ناصح   شك في نياته فانتهره
مستبد باذل في لحظة   ما ادّخرناه له وادخره
يهب المرء وما يملكه   وعلى الموهوب أن يستغفره
هزأ الشاعر منهم قائلاً:   بلغ السوس أصول الشجره
رحمة الله على أسلافكم   إنهم كانوا تقاة بررة
رحمة الله عليهم إنهم   لم يكونوا أمة منشطره
إن من تبكونه يا سادتي   كالذي تشكون فيكم بطره
إنما بأس الألى قد سلفوا   قتل الهمة فيه والشره
فاحبسوا الأدمع في آماقكم   واتركوا هذي العظام النخره
لو تعلم فعل أجدادكم   ما تقضى الظالم منكم وطره
ما لكم تشكون من محنتكم   وشتم ألسنكم أن تشكره
وجعلتم منكم عسكره   وطلبتم أن تطيعوا عسكره
كيف لا يبغي ويطغى آمر   يتقي أشجعكم أن ينظره
ما استحال الهر ليثاً إنما   أسد الآجام صارت هرره
وإذا الليث وهت أظفاره   أنشب السنور فيه ظفره

«الولايات المتحدة»   إيليا أبو ماضي